قراءة نقدية

الحكاية: جغرافية المعنى وترحال الخيال

قراءة في كتاب حكايات عتيقة[1]

"الإنسان يزرع الأرض بالحكايات والأساطير ليعمرها بالمعنى ويؤثثها بالحب"

مالك الريماوي

لكل كتاب بداية ونهاية يمر بهما كل قارئ للكتاب، ولكن في الكتاب مداخل ومسارب تفضي إلى قراءات سرية وملتوية، وتأويلات متحاربة، وهذا ما يحظى به بعض القراء ممن يملكون المقدرة على الهرب والمراوغة، الهرب من الامتلاء إلى الفراغ، ومن الواضح إلى المعتم، فيبذلون الجهد لاختراق الفراغ والولوج إلى عتماته، أما جوهر الكتاب فيكمن في مركز، مركز الجذب الأخير. لكل كتاب مركز، وقوة ما، ثقب أسود، يسعى إلى أخذ القراء إلى أمكنة وعوالم داخلية وبعيدة، وهذا المركز لا يتبدى إلا بالدخول إلى الكتاب، ليس للإقامة فيه، بل للترحال فيه، ترحال يماثل ترحال حاج في أرض مقدسة، ترحال في الجغرافيا المقدسة وفي الذات التواقة المسكونة بالتوق والسعي إلى الجوهر المقدس، ذلك المعنى المقدس المنشود الذي لا يسكن في الجغرافيا المقدسة ولا في دواخل الذات التواقة، وإنما يتجلى فيهما معاً، ويتخلق من التقاء المكان المشحون بتاريخ الرغبات، والرغبة القاطنة فيمن يحج إلى المكان، وذلك يعني أن مركز أي كتاب هو تلك النقطة التي تتخلق من التقاء الخطين، خط يعبر الإنسان القارئ وخط يعبر الكتاب، ولحظة التقائها قد تتحقق من الصفحة الأولى، وقد لا تتحقق حتى بعد انتهاء القراءة.

حكايات وقصص عابرة للحدود، متخطية للجغرافيا، فيها تتكامل الثقافات وتتفاعل، يتجاور فيها أقصى الشمال مع أبعد نقطة في الجنوب، ويتحاور الأفريقي مع الأمريكي، إنها قصص من مختلف الحضارات البشرية من أوروبا وآسيا وإفريقيا والأمريكيتين، من العالم القديم، فيها براءة الثقافة البشرية وعبقرية مخيالها، قصص نسجها الإنسان في تلك المراحل التي كان فيها ابناً للكون، ينخرط فيه، يتلمسه، ويتحد معه، ويحاول أن يحكي الحكاية، حكاية كون فيه أناسه، وحكاية إنسان في كونه، في تلك المرحلة، حيث بداية انفصال الإنسان عن الأسطورة، بداية القراءة المتلعثمة للعالم، لكنها قراءة صادمة وعميقة، فالكتاب يوفر للقراء –معلمين وتربويين وطلاباً– تلك النصوص التي ستفعل دور السرد في الحياة، وتعمق عمل الخيال، وتنمي قدرات القراء على اكتشاف الأبعاد المختلفة للحياة، عبر الدخول إلى القراءة كمغامرة تنفتح على ذاكرة بشرية موغلة في القدم، موغلة في التنوع، ذاكرة أعادت تشكيل العالم، فقدمته بثرائه وتنوعه، خيالات وأساطير ورموز وشعائر وطقوس وأخلاقيات، قدمت بأشكال متنوعة، تجمع بين بلاغة السرد وطرافة الحدوتة، وبين عمق الحبكة وغرابة الخرافة، يتجادل فيها المعرفي بالعجائبي في سياقات متنوعة.

جديد الكتاب في كونه يمثل خريطة كونية، رسمت بحكاياتها تضاريس الذهن الإنساني، حيث وحدة المخيال البشري وتعدد التواجد الجغرافي، كتاب فيه التاريخ يعانق الجغرافيا، واللغة تتصالح مع الدين، والأسطورة والمعرفة تتفاعلان في ثنايا الخرافة، الكتاب يتضمن مادة حكائية تصلح وتعمق تعليم مواد التاريخ والجغرافيا واللغة والكتابة الإبداعية.

الكتاب في عمقه التاريخي، واتساعه الجغرافي، وأسلوبه الحكائي وبنيته العجائبية يمثل حكاية الإنسان: حكاية الحياة الإنسانية على الكوكب الأرضي بتفاصيلها الأنثروبولوجية والاجتماعية والثقافية.

الحكاية: إعمار الكون بالمعنى

الحكاية تتمثل الحياة وتعيد تأثيثها، بلغة سردية وطقوسية تضع المتلقي في حالة برزخية بين ما كان (أي ما حدث) وما يجب أن يكون، وبذلك قد تبدو كل الحكايات نابعة من أصول متقاربة ومنابع متجاورة، وذلك صحيح، وقد يعود في جزء منه إلى وحدة الذهن البشري، تلك الوحدة التي تنهض في جوهرها على الاختلاف، فالذهن والحس والوجدان لا تعمل في فراغ، بل كلها تتحرك ضمن مجموعات من الأنساق الجغرافية والثقافية والاجتماعية التي تؤطر كلاً منها وتوجهه، ما يعطل تصلب الأشياء ويبدد واحديتها، فلكل شيء هويات متعددة بتعدد سياقات إنتاجه، والأنساق التي تعيد وتحتضن عملية الإنتاج هذه، فمعنى الشيء وقيمته لا يتحققان خارج عمليات استخدامه اجتماعياً وتمثله ثقافياً.

ولد الإنسان بالمفهوم "الأنثروبولوجي" مع ميلاد الحكاية، فكما أن الخلق حكاية، فإنّ الحكاية خلق، خلق للإنسان الذي يخلقها ويتخلق عبرها، فمنذ البدايات الأولى للحياة الإنسانية، والإنسان يواجه قساوة الجغرافيا وعنف الطبيعة برهافة المعنى وشفافية الدلالة وطاقة الرمز، وقد استعان الإنسان بالأسطورة والحكاية والقصيدة والأغنية على إعمار الفضاء الجغرافي بالمعنى، لتحويله إلى مكان قابل للسكن، والسكن هنا بمعنى السكينة، وبهذا المعنى يكون الإنسان خالقاً للمكان الذي يسكنه، فالناس يتخيلون الأمكنة أولاً أو يخترعونها، ثم يسكنون فيها بعد أن يسكنوا إليها، أي يتقبلونها بعد أن صاغوها كما يشتهون لها أن تكون، وبذلك ينتقل المكان من كونه منطقة جغرافية إلى مكان إنساني واجتماعي، وذلك بعد تأثيثه بالمعنى والرمز والدلالة ليصبح بيتاً للمعنى من خلال تحويل مفردات الجغرافيا إلى رموز وأيقونات، ما يخرج بالمكان من حقل الجغرافيا إلى حقل التاريخ والثقافة، فيصبح عامراً بالمعنى ومؤهلاً لاحتضان الإنسان، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش في خراب دلالي وفراغ رمزي، وهذا ما تصدى السرد والخيال لتحقيقه عبر تأثيث المكان بالمعنى وإعماره بالدلالة، وشحنه بالرمز، لجعل الإنسان كائناً أرضياً وجعل الأرض مكاناً إنسانياً.

ذاكرة الأرض ومرآة السماء

ما تقدمه هذه الحكايات يدحض الكثير من الأصنام التي بناها العقل الغربي (الاستعماري) الحديث لنفسه من أنه أول من اخترع العلوم، وبخاصة علوم التاريخ

وعلوم التنبؤ والتحكم بالمستقبل، فها هي الحكايات الهندية والأفريقية تحكي قصة الإنسان القديم، وهو يجعل من الأرض سجلاً لتاريخه ولتاريخ العالم، فما هو مكتوب بمفردات الجغرافيا، تعاد كتابته بلغة الحب ورموز الكفاح البشري وأيقونات الإثم والبطولة، فالعشاق يتحولون إلى جبال تغطيها الثلوج كأنصاب للحب ومعابد للغرام، والنساء المحبات يتحولن إلى ورود بيضاء وأشجار، بشكل يكتب التاريخ بالحفر في الجغرافيا والنقش بالسرد، ما يجعل الأرض ذاكرة أخرى للإنسان، أو امتداداً لذاكرة الإنسان، وفي الوقت الذي تمكن الإنسان القديم من نقش رغباته وخيالاته على سطح الأرض لتصبح جبالها أيقونات حب وصخورها أرواح العشاق والقديسين وتضاريسها قصص حب ومغامرات بطولة، وأنهارها تجري بدماء الشهداء والأسلاف، والأشجار والورود رموزاً لنساء تحولن بسبب البطولة أو الخطيئة إلى نصب تذكارية شاهدة لهن أو عليهن، فإن الإنسان أيضاً بواسطة الحكاية قد جعل من السماء بوابة لعلم المستقبل، وشرفة لقراءة الآتي، سواء عبر الحدس به أم عبر توهمه وتخيله والاقتناع به والإيمان بضرورة تحقيقه، ما يعني أن تصبح السماء ومفرداتها الفلكية من نجوم وشموس وأقمار– شاشة لتجسيم وتجسيد رغبات الناس المخفية وأحلامهم المجهضة وحرياتهم المقموعة، فالأحبة يأتيهم سفير السماء ليحرضهم على الخروج على القانون الجمعي، والانصياع لأمر الرغبة وعرف الحب (قصة وردة المايا البيضاء، ص ٢٦)، وحركات النجوم ترسم لشعب (تلاكس كالا) مغامرة الحرية على شكل صراع "كان مكتوباً هناك في رسومات النجوم، وكان قدر الزعيم الشجاع الذي تمكن من قراءة المغامرة الكبرى التي اصطفته الآلهة لتحقيقها" (قصة حب البراكين، ص ١٤–١٥).

كيف لا تصبح الأرض ذاكرة وهي مسرح لفعل الناس ولفعل الآلهة، فهي أحد الفواعل الرئيسية في مغامرة الإنسان وعلاقته مع الآلهة، فالأرض تنفتح عن ممرات وطرق ليمر منها شعب (إتزا) بعد أن حقق ملكهم رغبة الإرادة العليا وخطف الأميرة الوردة البيضاء، ما يعني أن الأرض أيضاً مهيأة للمغامرة الكبرى المرسومة للإنسان والمعدة لتحقيق أقدار مقدرة رسمتها إرادة عليا.

والسماء أيضاً فكيف لا تكون سجلاً للرغبات وخريطة للمستقبل المجهول، وهي ضمن التصور الحكائي بيت الآلهة وما يملؤها من شموس ونجوم هي في الأصل آلهة ضحت بنفسها من أجل إنارة الكون، فالحكاية تقدم قصة الخلق في ثوبها الأسطوري (فالآلهة تجتمع وتقرر أن يضحي إله بنفسه، وأن يتحول إلى شمس، ويتطوع اثنان من الآلهة، إله قوي جبار وآخر ضعيف، وتعدت المحرقة، ويرمى كلٌ منهما بنفسه في النار، فيتحول الأول إلى شمس والثاني إلى قمر" (ص١٨)، وبذلك فإن حركة النجوم ورسومها طبقاً للتصور الحكائي عند القدماء ترسم أقدار الناس وتقدر خياراتهم، وبالتالي تصبح هذه السماء ليس إلا مرآة يرى فيها الناس أمنياتهم، وتساعدهم على اكتشاف رغباتهم والكفاح لأجل تحقيقها وهم مسلحون بوهم أن هناك إرادة عليا تحرسهم، وقدراً يختارهم وآلهة تساعدهم.

الحب والحرب قدر الإنسان وقصته

إن للحب في قصص التاريخ القديم مكانةً، تجعل منه رديفاً للحياة، أو شكلها الأعلى، ذلك الشكل الذي وجدت آلهة لتخلقه وتعمل على تحقيقه، تقف في مقابلها آلهة أخرى، آلهة اختارت فصد حرفي الباء والحاء بحرف الراء لتصبح آلهة الحرب التي ستدفع بالحياة إلى أعنف شكل لها، وبذلك تصبح الحياة هي السيرورة التاريخية لإنسان ترسم له الأقدار أن يرتحل بين قطبي الحياة الأكثر عنفاً، قطب الحب الذي يخض الدم وقطب الحرب الذي يفجرها ليعطي للحياة دراميتها وصورتها العنيفة.

في الحكاية القديمة ارتبط تحقق الحب بحرب ما وارتبطت الحروب بقصص الحب، ففي قصة "حب البراكين" إحدى قصص قبائل الأزتيك الهنود الأمريكيين الذين كانوا يقطنون في الأرض المكسيكية قبل وصول الغزاة الأسبان، تأتي الحرب كاستجابة لإرادة عليا، ارتسمت في رسومات النجوم، وكذلك الحب الصامت الذي حمله البطل "فوفو كاتيفيتي" للأميرة "اكتساك سيهوات" بوعد من سيده وملكه "ملك تلاكس كالا" الذي اختار أن يحرر شعبه من العبودية لإمبراطور الأزتيك الذي كان يفرض على "تلاكس كالا" والممالك الأخرى تقديم الذهب والرجال قرابين لمعابد الأزتيك.

تدور القصة حول ثنائية الوعد، وعد يقرأه ملك "تلاكس كالا" في رسومات النجوم، فيجمع الممالك المجاورة ويخبرهم قائلاً "سيمضي شعبي في الطريق الذي اختارته الإرادة العليا لنا جميعاً. فلنتحد لنتحرر من تلك العبودية. لا ذهب بعد اليوم ولا فتية من أجل مذبح الأزتيكيين" (ص١٤). ومع أن القبائل الأخرى قد شلها الخوف من إمبراطور الأزتيك، فإن "ملك تلاكس كالا" المسلح بوعد من الإرادة العليا بالنصر قد وضع مصيره ومصير شعبه في يد القدر، وقرر خوض المغامرة، وقد عهد لبطل مملكته "فوفوكاتيفيتي" بقيادة الجيش الذي بدوره قد طلب من سيده "يا سيدي إذا عدت منتصراً فاجعل لي "اكستاك سيهوات" زوجة، فأنا أهيم بها بصمت" (ص١٥).

وعندما يعود البطل وقد حقق إرادة القدر العليا، وأنجز وعدها بالنصر، يستقبل بالموسيقى والأفراح، لكنه في القصر لا يجد سوى الصمت، فيمسكه الملك ويقوده إلى سرداب محفور في الصخر، حيث الأميرة ملفوفة بكفن الموت الأبيض ويقول: "لقد خبأتها لك يا ولدي، لكن الموت خطفها".

فيشعر البطل بأن انتصاراته قد أحبطت، وأن سيده قد خذله ... وأطلق صوته في وجه السماء التي أهدته النصر لكنها خذلت حبه (ص١٦) ويحملها ويصعد إلى قمم الجبال، حيث يتحول العاشقان إلى جبلين تغطي قمتيهما الثلوج تحت شمس أنهواك كخاتمة حب خالد" (ص١٦).

والحكاية إذ تدلل على عبقرية الإنسان، فإنها تدلل أيضاً على عمق صراعه مع القوى الرهيبة التي كان يخلقها ليستعين بها على تغيير مصيره، ومن الحكاية يمكن قراءة تاريخ شعوب ما سمي "بالعالم الجديد"، مع أنه ليس بجديد بالنسبة لسكانه الأصليين أصحاب هذه الحضارة التي أنتجت مثل هذه الحكاية، وهذه الحكاية التي تصف حضارة، حضارة ترى أن الحياة لا تستحق أن تعاش إلا في أعنف صورها وأكثر أشكالها مغامرة ومخاطرة: حرب من أجل الحرية أو حب صامت لدرجة الموت وما يمكن معرفته من الحكاية كثير، لكن أهمه هو أن الهنود الأمريكيين الأصليين كانوا يتصورون أن:

- العبودية موقف طارئ ولا يقبله إلا الضعفاء والجهلاء.
- الحرية قدر من يقرأون مفاتيح المستقبل.
- الإنسان في النهاية وعد، "سيد تلاكس كالا" وعد قائده، والوعد كان احتفالاً عظيماً على شرف الانتصار، وعلى شرف الزوجة الرائعة، فالإنسان منذ القدم كان يرى في الكلمة ما يساوي الفعل، وفي الوعد قيمة الاحتفال.
- الأرض ذاكرة للحياة وتضاريسها امتداد لذاكرة الناس، فجغرافيا الأرض مكتوبة بأساطير الحب وملاحم البطولة، فالجبال أيقونات حب، والصخور أجساد الطائشين والمغامرين، والأنهار تجري بدماء الأسلاف، والأشجار نساء تحولن لنصب تذكارية يذكرن الناس بأفعالهن، سواء أكانت بطولات أم خطايا.

والسر والمسار ذاته يحرك حكاية "وردة المايا البيضاء" التي تمثل تنويعة مختلفة على موضوعات الحب والحرب والخيانة وعلى مفردات الطبيعة، فالإنسان القديم لم يكن قد وصل للحظة الانفصال عن الأرض والسماء، ففي ذلك التاريخ كان الإنسان والأرض والسماء على وفاق، فالأرض تمتلك من الحياة بقدر ما يمتلك الإنسان من

الخصوبة، والآلهة ثالث الاثنين، فيها من الإنسانية بمقدار ما في الإنسان من ألوهية.

وحكاية "وردة المايا البيضاء" حكاية حب وحرب تفسر تحول العاشقة "ساكنيكت إلى وردة بيضاء تزين أراضي المايا، تلك الأراضي التي كانت تتقاسمها ثلاث ممالك "مايافان" و"أوكسمال" و"اتزا" المدن الشقيقات الخالية من الجيوش؛ لأن ملوكها قد قطعوا وعداً بأن تعيش مدنهم كشقيقات".

وفي يوم تنصيب "كانيك" ملكاً لمدينة "اتزا" التي فيها المذبح ومعبد الحكمة، رأى الملك في حفل التنصيب الأميرة "ساكنيكت" "فخفق قلبها بالسعادة، ولما حل الليل نامت وثغرها مشتعل بابتسامة مضيئة، وعندما استيقظت، عرفت أن حياتها وحياة الأمير "كانيك" قد أصبحتا مثل نهرين يجريان معاً ليقبّلا البحر، وهذا ما حدث، وهكذا يغني أولئك الذين عرفوا ولم ينسوا ذلك التاريخ (ص٢٥).

يلاحظ أن الحب في ذهن الإنسان القديم حالة معقدة تستحق التفكير والتحليل، فالحب أغنية، أغنية الإنسان في علاقته بالقدر المحتوم وفي سعيه للحرية وصياغتها، فالحب يولد في طقس ما احتفالي في الغالب، ويولد في لحظة خاطفة، لحظة تلتقي فيها العيون وتنفصل وما بين تبادل سهام النظرات واقتلاعها يحدث الوعد، وعد يتحول إلى أغنية يحرسها القدر ويتعهد بتحقيقها ويحفظها التاريخ على شكل مأثرة أو مأساة محفورة في ذاكرة الأرض وذاكرة الناس. ولكي يُصَعِّد القدر من عنف الحب، ويحوله من فعل بشري إلى أسطورة يقوم والد الأميرة "ساكنيكت" وملك "مايافان" بمنح ابنته الأميرة للأمير "أوليل" ملك "أوكسمال" وهكذا دخل الحب كخيار للإرادة العليا لضرب السلم بين الممالك الثلاث، ففي حين أن بنت ملك "مايافان" مخطوبة لملك "أوكسمال" ينعقد حب خاطف بين البنت وأمير "اتزا".

وفي حفل زواجها لم يظهر ملك "اتزا" في اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني، مع أنه وعد عندما جاء المبعوثون لدعوته، حيث قال: "قولوا لسيدكم أنه سيراني في ذلك اليوم"، وفي اليوم الثالث جاء سفير الإرادة العليا، وهمس له أن الوردة البيضاء تنتظرك فهل ستدع رجلاً آخر يقطفها، وينهض الأمير لتحقيق نبوءة القدر وإطفاء نار الحب وينتهي إلى ترك مدينته العظيمة فريسة لنيران الأعداء ليفر بحبه وقدره، وتساعده الإرادة العليا بفتح المسارات والمغالق أمامه، في حين تبقى مدينته وحيدة وميتة ومهجورة، حيث يرافقه الناس والطيور والحيوانات في رحلة الحب والمغامرة، إنها حكاية الأسطورة أو أسطرة الحياة لإعطائها معنى حاداً يضع الأشياء على حافة المغامرة ويصنع من الحب عالماً، ومن المغامرة مسرحاً، ومن العاشقين أبطالاً، يكافئهم التاريخ بتسجيل حبهم ووعودهم وتضحياتهم، والأرض تحيلهم إلى أيقونات حب وورود بيضاء.

المسخ: كتابة الآلهة لتحويل الحب والإثم إلى أيقونات ونصب تذكارية

في الحكايات الهندية (الأمريكية القديمة أو الأصلية) تكتب الأرض وتضاريسها بلغة الحب، فكل العشاق في الحكايات يتحولون في النهاية إلى جبال أو صخور أو ورود، وذلك إما تخليداً لهم (مثل حكاية حب البراكين وحكاية وردة المايا البيضاء) وإما عقاباً على كسر الحدود، وبخاصة عندما يعشق راع من البشر ابنة من بنات آلهة الشمس" في قصة (الراعي وعذراوات الشمس)، حيث ينتهي بهما الأمر إلى التحول إلى حجارة، وكذلك المحارب (أويانتي) الذي يتجرأ على طلب يد ابنة الملك التي تعتبر ابنة الشمس، ولكنه يكون قد رآها ووقعت عينه في عينيها كوعد حب صامت"، وعندما طلب خطبتها يصرح الملك: كيف يتسع قلبك لرغبة مرعبة كهذه، ويصرخ في وجه ابنته: لا ... أبداً يا ابنة الدم المسمم بحب إنسان، حيث تنتهي مغامرة تمردهما بالموت فيتحول أويانتي إلى جبل وتتحول كوييور إلى نجمة.

وكما الحب يوصل عُبَّاده إلى التحول إلى أيقونات، فإن الكره والاستعلاء يمسخ الذين يسيطر عليهم "فأسافي" الفتاة التي لا تأبه لآلام الناس، والتي لم تعشق أحداً، ولم تذرف دمعة من أجل أحزان الناس تحولها الساحرة إلى شجرة الأسافي التي تظلل المسافرين وتمنحهم الماء تكفيراً عن امتناعها عن البكاء لآلام الناس.

وكما أن الجبال قد خلّدت قصص الحب في تضاريسها، فإنها قد خلّدت قصص اللعنة، فسكان مدينة (تي كوفاي) الذين يحتفلون بقدوم المرضى إلى جبل إيوان للحصول على البركة والصحة، استمروا في الاحتفال والرقص والشرب، ولم يحفلوا بصراخ المرضى، ولم يساعدوهم على الوصول إلى الجبل، وعندما انتهى الليل، بعث الإله العاصفة التي حملتهم وحطت بهم حطاماً على رأس الجبل الذي لا تزال تضاريسه شاهداً على الحطام والبقايا.

الكتاب عمارة إنسانية مؤثثة بالحب والمعنى

والكتاب في مجملة يمثل حكاية الحياة نفسها أكثر مما يحكي الحكايات المنتجة بفعل الحياة، ويحكي تاريخ الإنسان ككائن يحكي، يحكي لنفسه وللآخرين، يحكي ليس ليصف الواقع، وإنما ليتواصل مع الرغبة ويطارد المجهول في داخله وفي العالم المحيط به، فحكايات الكتاب تتنوع في الموضوعات والبيئات واللغات، ولكنها تشي بعظمة الإنسان وبعبقرية مخياله، وإذا ما أبرزت تعدد الناس واختلافهم وتعدد الثقافات وتباينها، فإنها في الوقت نفسه تظهر تساوي كل الشعوب في الإبداعية وتماثلهم في القدرة على طرح التساؤلات وخلق الرغبات وبناء السرديات، تلك السرديات التي تمثل نظرة كل منهم لنفسه ومكانته، وتقترح معنى للعالم وطرقا للعيش فيه، فثمة حكايات هندية (الأمريكية الأصلية) ضاجة بالروح العميقة وبالأساطير والقدرة الخارقة على التواصل مع الطبيعة وفك شيفراتها، حكايات مليئة بالآلهة والمعابد والقرابين، حكايات فيها تحاور وتصارع بين الناس والآلهة والأرض والسماء، حكايات تمثل إنجيلاً للحب والمغامرة والبراءة، هذه الحكايات تتجاور مع حكايات يونانية تحكي مغامرة الإله بروميثيوس، الذي سرق النار من معبد الآلهة ووهبها للناس وحُكم عليه بالعقاب بأن ربط إلى صخرة وترك لنسر يلتهم كبده، وما يماثلها عند سكان نيوزيلندا وأمريكا الشمالية، حيث هناك حكايات تحكي الموضوعة نفسها بأشكال متعددة، وهناك الحكايات الآتية من الصين كحكاية الرسام "لي" الذي يعيش الريف ويرسمه حريةً وإبداعاً، يحرم من ذلك ليزين قصر الملك فيحبط ويصاب بالكآبة والقهر، ولكنه في النهاية يرسم لوحة كبيرة تمثل الريف ليدخلها ويغيب فيها ويختفي في لوحته لتصبح اللوحة والرسام والريف والحرية والإبداع. وهناك الحكايات القادمة من الهند بلد البراهما والحكمة والثقل الفلسفي والروحاني، ما يجعل حكاياتها مليئة بالحكمة والتسامح والزهد لدرجة يصبح شعار أبطالها "لنكن محظوظين لأننا استطعنا أن نعطي شيئاً" (ص١١٨).

وكما أن للزهاد والعشاق حكاياتهم، فهناك حكايات للفرسان والملوك، ملوك يولدون من البحر ليعودوا إليه وهم أموات بعد أن ينشروا الحب والعدل بين الناس، وهناك حكايات للبسطاء، وأخرى للمحتالين والمجرمين، لكل حكاياتهم ولكل بيئاتهم من روسيا حتى مالي وغانا، ومن جبال مغطاة بالثلوج حتى أقاصي صحاري تئن من شدة الحر، والإنسان يعيش ويزرع الأرض بالحكايات والأساطير ليعمر الأرض بالمعنى ويؤثثها بالحب.

مالك الريماوي – مركز القطان

الهوامش:

[1] تأليف: إرمينيو ألندروس، ترجمة: أحمد يعقوب، مركز القطان للبحث والتطوير التربوي – رام الله، فلسطين، ط١، ٢٠٠٤